فوائد الليل وأسراره

دراسة فكرية

م.م. تكليف لطيف رزج
جامعة الانبار – كلية العلوم الإسلامية – الرمادي
قسم العقيدة والفكر الإسلامي

الخبير اللغوي
أ.م.د فراس عبد الرحمن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد(ﷺ)

أما بعد :

فقد جعل الله تبارك وتعالى في الكون سننا ثابتة ، ونواميس لا تتغير ، سواء أ كان له صلة في استمرار وديمومة الحياة إلى اجل مسمى، كقوله تعالى:﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ﴾ (١) ، أم مما له صلة بالحياة الأخرى حياة ما بعد الموت كقوله تعالى: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (٢) ففي الآية الأولى تتجلى فائدة الليل والنهار الدنيوية ،وما يترتب عليها من معرفة الأوقات بأيامها ،وأسابيعها ،وشهورها ،وأعوامها ، وجعل الليل، والنهار آيتان، ولكل واحد منهما دور في استقرار الحياة على هذا الكوكب ليس للإنسان فحسب بل للمخلوقات جميعا .

أما الآية الثانية فمن خلالها نعرف الكثير من الأسرار الربانية في اختياره تعالى لليل لكي يكون وقتا مفضلا عن غيره من الأوقات للدعاء، والصلاة، والتسبيح، والتفكر .

إن المتتبع لآيات القران الكريم يجد أن لفظة (الليل ، ليلا ، ليلها ، ليال ، ليالي) قد تكرر ذكرها بنحو (٩٢) مرة موزعة توزيعا بمستوى يعجز العقل البشري عن وصفه ، لذا سنحاول الوصول إلى معرفة بعض الحكم الإلهية التي تتجلى من اختلاف الليل والنهار، حيث خصّ الله تعالى (الليل) بأن يكون وقتاً للانقطاع والوقوف بين يدي الله ففي كل تأمل وتدبر وتفكر في هذه الآيات يظهر أمرا جديدا وحكمة لم تكن ظاهرة من قبل .

وجاء البحث مقسماً على مبحثين :-

المبحث الأول : قسمته على ثلاثة مطالب

المطلب الأول : تناولت فيه تعريف الليل لغة واصطلاحا ".

أما المطلب الثاني: تناولت فيه لفظة (الليل) وما يضاف إليه في القران الكريم .

أما المطلب الثالث: تناولت فيه فوائد الليل من حيث كونه ظاهرة كونية متعاقبة ، مستمرة، ومتلازمة مع النها، وأثر ذلك على حساب الأيام والشهور والأعوام وما يترتب على ذلك من مصالح دنيوية تسهم في استمرار الحياة ليس للإنسان فحسب بل لسائر المخلوقات .

أما المبحث الثاني :فقد قسمته على مطلبين : المطلب الأول : تناولت فيه الأسرار الإلهية التي تكمن وراء اختياره تعالى لـ (الليل) وقتا للعبادة بأنواعها ووقتا لكثير من الحوادث التي حدثت ،ومنها الإسراء والمعراج ، ونجاة آل لوط من العذاب ،و نجاة قوم موسى من سطوة فرعون ، ونجاة محمد (ﷺ) من كيد الكفار ، ووقتا لنزول القرآن الكريم، أما المطلب الثاني: فقد تناولت فيه مسألتين: الأولى : دعوة للتفكر والأخرى: ثمرة قيام الليل ،وما يضمه الظلام من أسرار لهذا الاختيار سواء على مستوى الفرد أم المجتمع سواء أكانت دنيوية أم دينية ، عاجلة أم آجلة ،معتمدا في ذلك على القران الكريم في توزيعه ،وتنسيقه ،وتركيزه ،وأقوال المفسرين الذين جمعوا أقوال المصطفى (ﷺ) في تفسير الآيات ، وأقوال الصحابة، والتابعين في تفسيرهم لآيات القرآن الكريم .سائلين المولى عز وجل أن يعفو عن الخطأ أينما وقع ،وأن يرشدنا إلى النور أينما سطع ،وأن يعلمنا من العلم ما نفع، وأن يجعلنا من عباده الذين يتلون كتابه آناء الليل وأطراف النهار ،لا تلهيهم الدنيا،ولا تغرهم الآمال، ويقومون له الليل بالتكرار،وإخلاص النية وصدق الامتثال .

والله من وراء القصد

الباحث

المبحث الأول : فوائد الليل

المطلب الأول : تعريف الليل لغةً واصطلاحا

الليل لغةً : الليل واحد بمعنى جمع ، وواحدته ليلة مثل تمرة وتمر ، وقد جمع على ليال فزادوا فيه الياء على غير قياس ، وليل أليل شديد الظلمة والليل عقيب النهار ومبدؤه من غروب الشمس (٣)

الليل اصطلاحاً : جاء تعريف الليل مقارباً من تعريفه في اللغة حيث جاء في الاصطلاح : الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر (٤)

المطلب الثاني : الليل في القرآن

ورد لفظ الليل في القرآن (٧٤) مرةً ،وما ورد هذا اللفظ إلا مقروناً بلفظ النهار وهذا الغالب في الخطاب القرآني ، فتارة يتحدث القرآن عن قدرة الله في اختلاف الليل والنهار حيث قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)** (٥) وقد تكرر هذا في سورة البقرة ١٦٤ الآية ، وسورة يونس الأية٢٦ ،و سورة المؤمنون الأية٨٠ ،و سورة الجاثية الأية٢٥ ، وتارةً يتحدث عن قدرة الله في إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل حيث قال تعالى: ﴿ **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** ﴾ (٦) وقد تكرر هذا في سورة الأعراف الأية٥٤ ، و سورة الحج الآية٦١ ، و سورة لقمان الأية٢٩ ، و سورة فاطر الآية ١٣ ،و سورة الرعد الآية ٣ ، و سورة الزمر الآية ٥ ، و سورة الحديد الآية ٦ ، وتارةً يتحدث عن الليل بكونه آية من آيات الله حيث قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾ (٧) ، وقد تكرر هذا في سورة الروم ٢٣ ، ويس ٣٧ ، وفصلت ٣٧ ، وكما اقسم الله تعالى بالليل تارة أخرى حيث قال تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۞وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ**﴾ (٨) ، وقد تكرر هذا في سورة التكوير الآية ١٧،و سورة الانشقاق الآية ١٧، و سورة الفجر الآية ٤ ، و سورة الشمس الآية ٤ ، و سورة الليل الأية١، و سورة الضحى الأية٢ ، أما لفظة (ليلا") فقد وردت في القران الكريم (٥) مرات في سورة يونس الأية٢٤ ، و سورة الإسراء الأية١ ، و سورة الدخان الأية٢٣ ،و سورة نوح الأية٥ و سورة الإنسان

الأية٢٦ ، ولفظة (ليلة) وردت في القرآن (٨) مرات في سورة البقرة مرتان الآية٥١ ، و١٨٧ ، و سورة الأعراف مرتان في الآية ١٤٢ ، و سورة الدخان الآية ٣ ،وفي سورة القدر ثلاث مرات ، ولفظة (ليلها) وردت مرة واحدة في سورة النازعات الآية ٢٩ ، ولفظة (ليال) وردت ثلاث مرات في سورة مريم ١٠الأية ،و سورة الحاقة الآية ٧ ، و سورة الفجر الأية٢ ، ولفظة (ليالي) وردت مرة واحدة في سورة سبأ الآية ١٨ .

المطلب الثالث : فوائد الليل

إن الحديث عن الليل و ما يتعلق به من فوائد دنيوية ، وما يترتب عليه من مصالح لا تنحصر بالفرد ، بل تتعداه إلى المجتمع، والى الحياة كلها نباتاً كانت أم حيواناً ،حديث له نفعه وأثره في الدنيا قبل الآخرة ، فما مدى حاجة الإنسان ، أو الحيوان ،أو النبات لهذا الجزء الذي جعله الله آيةً ودليلاً وبرهاناً على عظمته ،وقدرته ،وحكمته؟واثر ذلك على ديمومة الحياة واستمرارها ؟ من سكون وحركة ، ونوم و يقظة ،و تعب ونصب ، وراحة واسترخاء ،و صمت وصوت .

فالقرآن وصف الليل بأنه لباس ،ومظلم، وسكن وبأنه وقت ليسكن فيه بنو البشر، وجعل النوم فيه سباتا ،ووقتاً تختفي فيه سائر المخلوقات ، وجعل النهار معاشاً، ووقتاً للكسب ،ووقتاً تسرب فيه سائر المخلوقات ، وجعله وقتاً للنشور والابتغاء من فضل الله ، ولعل كل ذلك كونه مبصرا ، وكل هذا وذاك تقدير العزيز العليم الذي خلق كل شيء وأتقن خلقه وصنعه ، فتدبر ذلك .

واليك ما ظهر من فوائد الليل وهي كما يأتي :-

- الفائدة الأولى : قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [٩] ، الفائدة هنا ما فيه من مصالح دنيوية، حيث التعاقب والاختلاف بين الليل والنهار هذا بالطول وهذا بالقصر يترتب عليه زيادة ساعات الليل على حساب ساعات النهار وهكذا بالنسبة لفصول السنة ربيعاً ،وصيفاً ، وخريفاً وشتاءاً وهذا له أثره في اختلاف الثمار التي تختلف من فصل إلى آخر، وكذلك فيما يخص الفواكه والخضر التي ينتفع بها الإنسان بالدرجة الأولى . والى هذا أشار ابن كثير رحمه الله بالقول : (تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا فيتفاوتان

ثم يعتدلان وهكذا في فصول السنة ربيعا" ، صيفا" ، خريفا" وشتاءا" .) [١٠]. وقال أيضا : (فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام)[١١] .

- الفائدة الثانية : السكن والسبات : فهنا نقف عند كل لفظة وردت في كتاب الله حيث ذكر القرآن الكريم السبات في آيات، والسكن في آيات ،والنوم في آيات أخرى ، و جاءت منفردة تارةً،و مجتمعة تارةً أخرى ، وكل واحدة منها لها معنى ومدلولاً يختلف عن الآخر ،وهذا هو شأن كلام الله تعالى . فعن السبات قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً**﴾ [١٢] حيث جعل الله تعالى النوم سباتا" وقد تكرر ذلك في قوله تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً**﴾ [١٣] ومعناه أن الله جعل النوم راحة ؛لان فيه انقطاع عن حركة الأبدان .
قال ابن كثير رحمه الله : (والنوم سباتا أي قاطعا للحركة لراحة الأبدان فان الأعضاء والجوارح تَكِلُ من كَثْرَةِ الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معا) [١٤] .

وعن السكن جاءت آيات تدلل على رحمته تعالى بعباده من خلال جعل الليل فترة تهدأ بها النفوس وتلجأ فيها إلى السكينة والاستقرار من خلال وصفه تعالى بأنه لباس حيث قال : ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً**﴾[١٥] ويذكر الله تعالى عباده بأن يذكروا نعمة الله عليهم بان جعل لهم الليل ليسكنوا فيه من تعب النهار ومشاقه ليتجدد لهم نهار ونشاط جديدين في حياتهم وانه (أي الليل) رحمة من الله بالمخلوقات كلها ، قال تعالى : ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [١٦] ، وقال أيضا":﴿**أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً**﴾ [١٧] ، والسكن هو الاستراحة من التعب الذي ينتج عن الحركة قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلل والتعب) [١٨] . وقال أيضا" : (أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم) [١٩] .

ولقد لفت سيد قطب رحمه الله الأنظار إلى فائدة ودور الظلام في سكون الخلايا الحية لكل حي وليس النوم فقط له فائدة حيث قال : (إن السكون بالليل ضرورة لكل حي .. فلا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية وتستكمل نشاطها في النور، ولا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون بل لابد من ليل ، لا بد من ظلام فالخلية الحية التي تتعرض إلى ضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بقسط ضروري لها من السكون) [٢٠] وهنا تتجلى لنا رحمة الله تعالى في كلمة واحدة (ألم يروا) وهنا دعوة للنظر والتأمل والتفكر في عظيم خلق الله تعالى .

نجد أن النبات هو الأخر بحاجة إلى ظلام الليل ليأخذ هو الأخر نصيبه من الرحمة . حيث ثبت من خلال التجارب الزراعية أن الظلام له اثر كبير في إزهار العديد من النباتات ، كما أن له دوراً في نمو النباتات ؛وذلك لان عملية التركيب الضوئي والتي من خلالها يتم تصنيع الغذاء تحتاج إلى ساعات من الظلام يقوم فيه النبات بطرح غاز ثاني أو كسيد الكربون واستهلاك الأوكسجين وهذه العملية عكس ما يحدث في النهار مما يؤدي ذلك إلى عملية التوازن في وجود الغازين بالجو وهذا بدوره له الأثر في استمرار الحياة ، علما أن الإنسان والحيوانات بحاجة إلى الأوكسجين وطرح ثاني أوكسيد الكربون في عملية التنفس ، فضلاً عن ذلك فان البذور والثمار في الضوء تتنفس أكثر من الظلام أي أن الظلام يقلل من التنفس وبالتالي يطيل فترة خزن البذور والثمار [٢١] ، فهل من متدبر لهذه المعاني وهل من شاكر لهذه النعم ؟!

- الفائدة الثالثة : تجدد الحياة واستمرارها : وهذه الفائدة لها ارتباط وثيق بالتي قبلها ، لأنه من دون السكون والانقطاع والراحة لا يمكن للحياة أن تستمر ولا يمكن لها أن تتجدد لان استمرار الحركة بدون السكون لا يمكن لان الأعضاء والجوارح تكل وتتعب ، كما إن النوم المستمر والسكون بدون حركة وعمل ونشاط لا يمكن التقدم إلى الأمام أو أن تستمر معه الحياة، فالحياة مبنية على ذلك ،والى هذا أشار القرآن الكريم بالقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا

تُبْصِرُونَ ۞ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢٢) .

فالإنسان بطبعه لا يمكن أن يستمر على حالة واحدة من ظلام مستمر أو نهار مستمر بل الحياة كلها تحتاج إلى هذا والى هذا ، قال سيد قطب رحمه الله: (والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلا في أيام الشتاء ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب فكيف بهم لو فقدوا الضياء .. ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض الساعات في الصيف ويجدون في ظلام الليل الملجأ والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجد ما تنفعه من الطاقة في نشاط النهار ، فالليل سكينة وقرار والنهار نشاط وعمل) (٢٣) . حيث جعل الله تعالى للنهار والضوء حاجات ، والليل والظلام حاجات ولكل منهما دوره ، قال سيد قطب رحمه الله:(وجعل حاجتهم إلى النشاط والعمل يلبيها الضوء والنهار ، وحاجتهم إلى النوم والراحة يلبيها الليل والظلام مثلهم مثل جميع الأحياء على ظهر هذا الكوكب) (٢٤) . وهذا استمرار وتجدد للحياة وديمومتها إلى اجل مسمى .

- الفائدة الرابعة : عدد السنين والحساب : إن من فوائد تعاقب الليل والنهار هي معرفة حساب الأيام ثم الأسابيع ثم الشهور ثم الأعوام وما يترتب على ذلك من مصالح دنيوية لا يمكن إنكارها ، ودور ذلك في تنظيم وقت الإنسان في هذه الحياة من المواعيد والأعمال التي يقوم بها الإنسان وفق منهج منضبط. إن عملية ضبط الوقت مهمة جدا في المعاملات بين الناس قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾** (٢٥) قال ابن كثير رحمه الله :(يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ويعرفوا وقت الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات وغير ذلك .. فانه لو كان الزمان كله نسقا واحدا واسلوبا" متساويا" لما عرف شيء من ذلك) (٢٦) .

وقال أيضا : (فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام) [٢٧] ، والى ذلك أشار القرآن الكريم بالقول: ﴿ **يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾ [٢٨] ، وقال أيضا": ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [٢٩] .

- الفائدة الخامسة : تذكير وموعظة : النوم وقت يحتاجه كل كائن حي ولاسيما الإنسان لكي يأخذ قسطا وافيا من الراحة للأعضاء والروح معا لذا جعله الله تعالى آيةً من آياته الدالة على عظمته وقدرته ، قال تعالى: ﴿ **مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[٣٠] فالنوم يذكر بالموت ،ويدلل في الوقت نفسه على قدرته تعالى على بعث الأجساد بعد موتها ، قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[٣١] ، جاء في كتاب فقه الأدعية والأذكار: (ومن فوائد النوم العظيمة انه يذكر الإنسان بالموت الذي هو نهاية كل حي ،إلا الحي الذي لا يموت ، وفي الاستيقاظ منه دلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى على بعث الأجساد بعد موتها ،وإحيائها بعد وفاتها) [٣٢] ، لذا كان النبي (ﷺ) إذا أراد أن ينام قال: (باسمك اللهم أموت وأحيا) وإذا استيقظ من منامه قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور) [٣٣] .

يقول سيد قطب رحمه الله قولاً يترك في النفس أثراً ،وفي العقل فكراً ،وهو يتحدث عن النوم بالقول: (هي الوفاة في صورة من صورها بما يعتري الحواس من غفلة وما يعتري الحس من سهوه ،وما يعتري العقل من سكون ، وما يعتري الوعي من سبات – أي انقطاع – ،وهو السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث) [٣٤] ، وبهذا نفهم قول النبي (ﷺ)(الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور) [٣٥] ، فالنوم خير مذكر بالموت ،والاستيقاظ منه خير موعظة بالبعث والنشور بعد الموت .. فهل من مدّكر !.

المبحث الثاني : أسرار قيام الليل

إن الحديث عن أسرار الليل حديث ممتع وأكثر جمالا من الحديث عن فوائد النهار لان الأخير يتعلق بمصالح دنيوية لها دورها في استمرار الحياة إلى اجل مسمى أما الأول والذي نحن بصدده الآن فإنه يتحدث عن أمور لها علاقة بحياةٍ مستمرةٍ أبديةٍ لذا يكون الشوقُ والتعلقٌ بالذي له صفة البقاء لا الزوال أكثر ، وأن المتأمل في بعض الآيات القرآنية يجدها تتحدثُ عن اختيار الله لوقت معين في ليلةٍ معينةٍ لنزول كلامه جل شأنه ويأمرُ العابدين بان ينقطعوا في جزءٍ من الليل لخالقهم بالتسبيح والصلاة والتوبة والاستغفار وغيرها من العبادات الأخرى ، وهنا له الحق كل من يسأل عن السرّ في هذا الاختيار الإلهي ، بل عن الأسرار التي تكمن وراء ذلك .

إن الذي يتتبع آيات القرآن الكريم يجدها تأمر بصلاة الليل ،والتسبيح ،والاستغفار ،و الدعاء مع أن هذه العبادات يستطيع أن يقوم بها الإنسان نهارا" جهارا" فهل هناك فرق ، وهل هناك ثمرات ؟ يقول تعالى: ﴿ **قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ (٣٦) ، وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً**﴾ (٣٧) فالأمر بالقيام شيء، والأمر بالتهجد شيء آخر ، فالتهجد جزء من القيام وهذا ما سنراه . لذا نبدأ بالقيام ونقف عند قول ابن كثير رحمه الله في ذلك : (وقيام الليل كان واجباً على النبي(ﷺ)،وعلى صحابته حولاً كاملاً ،ثم نُسخ في حق الأمة وجُوبُه ،ثم بعد ذلك نسخ اللهُ تعالى ذلك كلّه ليلة الإسراء بخمس صلوات) (٣٨) . جاء عن التابعين معنى (الناشئة) التي وردت في القرآن بمعنى قام حيث قال مجاهد (٣٩) وغير واحد : (يقال نشأ إذا قام من الليل .. الليل كله ناشئة ، بعد العشاء والفرض، إن ناشئة الليل هي ساعاته ،وأوقاته ،وكل ساعة منه تسمى ناشئة) (٤٠) وهنا يكمن سر اختيار الباري عز وجل لهذا الجزء من الوقت لان العبد يقوم به بين يدي الله لذا قال تعالى عن هذه الناشئة بأنها (اشد وطئا وأقوم قيلا) .

قال ابن كثير رحمه الله : (والمقصود إن قيام الليل هو اشد مواطأة بين القلب واللسان ، واجمع على التلاوة .. أي اجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام

النهار لأنه وقت انتشار الناس ولفظ الأصوات ، أي أصوب وأقوم وأهيأ) [٤١] . فالليل يعطي سكينة وهدوء وراحة من خلالها يكون الصفاء للفكر ،والذهن ،والعقل ويكون قلب العبد أكثر خشوعاً وذلاً بين يدي الخالق ،ويكفي بهذا الاختيار الرباني سرا كما إن الناس نيام ،وأنت تقطع من الليل الذي هو لراحة البدن والروح معا جزءا وأنت قد أمضيت نهارا من التعب والنصب بين هموم العيش وصعوبة الوقت ،كل هذا لأجل تلبية نداء الخالق لك ،لعلك تحظى برضاه ،أو مغفرته أو عفوه ، وهذا الأمر ليس سهلا ولنقرأ معا ما كتبه سيد قطب رحمه الله : (إن قيام الليل والناس نيام .. والاتصال بالله وتلقي فيضه ونوره والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه وترتيل القرآن والكون ساكن أجهد للبدن واثبت في الخير .. فان فعالية هتاف النوم وجاذبية الفراش بعد كد النهار اشد وطأ وأجهد للبدن ولكنها إعلان لسيطرة الروح واستجابة لدعوة الله) [٤٢] ، ثم ينتقل رحمه الله إلى الجزء الثاني من الآية (وأقوم قيلا) ليقول(فإنها أقوم قيلا لان للذكر فيه حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وانها لتكسب في القلب أُنساً ،وراحةً ، ونورا ،قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره) [٤٣] .

فهذا هو اختيار الخالق الذي يعلم ما يصلح حالنا في الدنيا والآخرة ، ولنجرب ذلك فسوف نجد اثر ذلك واضحاً وضوح الشمس . وفي هذا قال سيد قطب رحمه الله : (والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيأً ، وأي الأسباب اعلق به واشد تأثيراً فيه) [٤٤] ، ولعل هذا هو السر الذي جعل السلف الصالح ينتهجون منهج رسول الله (ﷺ) في الانقطاع لله في جوف الليل حتى مدحهم الله سبحانه بالقول : ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [٤٥] ،عن عائشة (رضي الله عنها) قالت :(كان النبي (ﷺ) يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت : له لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا) [٤٦]،، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) [٤٧] قال الحسن البصري[٤٨] (رحمه الله) : كانوا قليلا من الليل ، كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ..) وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : قال رجل من بني تميم لأبيّ : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله سبحانه وتعالى قوما فقال (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون)الآية، ونحن والله قليلا

من الليل ما نقوم ! فقال له أبي _ رضي الله عنه وأرضاه – طوبى لمن رقد إذا نعس ،واتقى الله إذا استيقظ) (٤٨) . فماذا نقول نحن في آخر الزمان ! إذا كان هذا هو قول كبار التابعين . قال سيد قطب رحمه الله _ قولا طيبا هنا _ (فهي حال يتطلع إليها رجال من التابعين – ذوي المكانة في الإيمان واليقين – ويجدون أنفسهم دونها ، اختص بها أناساً ممن اختارهم الله ووفقهم إلى القيام بحقها وكتبهم عنده من المحسنين) (٤٩) . فهل منا من يأنس بمثل ما انسوا ؟ حتى يصدق فينا قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا" وطمعا") (٥٠) .

وقد قال ابن عثيمين رحمه الله في هذا المقام: (هذه من أوصاف المتقين إنهم كانوا لا يهجعون من الليل إلا قليلا وذلك أنهم يشتغلون بالقيام والتهجد وقراءة القرآن وغير ذلك) (٥١) ثم قال رحمه الله: (فانظر ما هو أصلح لقلبك ، قد يكون الإنسان في حال السجود اخشع واحضر قلبا ، وقد يكون في حال القيام يقرأ القرآن ويتدبر القرآن ويحصل له لطائف من كتاب الله مالا يحصل له في حال السجود) (٥٢) .
كما إن النبي (ﷺ) حثنا على صلاة الليل أكثر من صلاة النهار حيث قال : (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) (٥٣) ، ولعل ذلك يعود إلى صدق النية فيها وخلوها من الرياء وفيها يكون الإخلاص لله تعالى وحده ، فالصلاة روضة من رياض العبادات . قال ابن عثيمين (رحمه الله) عنها (فيها من كل زوج بهيج ،قرآن ،وذكر، ودعاء ،وتسبيح ،وتكبير ، ولهذا كانت من أفضل العبادات البدنية) (٥٤) . لذا حث الباري عز وجل العباد على صلاة الليل بالقول : ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً**ً﴾ (٥٥) ، قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى (ومن الليل .. – أي – ومن ساعاته) (٥٦)،والتهجد ما كان بعد نوم وهو معروف في لغة العرب (٥٧).

إن التهجد والقيام في الليل لا يقتصر على الصلاة والاستغفار فحسب بل القرآن الكريم أمر بالتسبيح لله رب العالمين حين قال تعالى : ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾ (٥٨) ، وقال تعالى : ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾ (٥٩) ، فيجتمع القيام بين يدي الله بصفاء النية وصدقها مع التسبيح وقبل ذلك الاستغفار ثم الدعاء ليكون الإنسان موجها بكل أحاسيسه ومشاعره وجوارحه وأعضاءه للذي خلقهن فهو الوحيد المستحق للعبادة والخضوع والذلة والانقياد وما

سواه فلا ، والعبد في ظلام الليل يأمل استجابة لدعائه وقبولا لعمله ودفعا للظلم ورفعا للعذاب ورضا الباري عز وجل ، فإذا هو بحديث النبي ﷺ ((إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم سأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة)) [٦٠]، قال ابن عثيمين رحمه الله : (وهذه الساعة غير معلومة بعينها وذلك من اجل أن نجتهد وان نتحرى قدر الله عز وجل) [٦١]، فأي كرم هذا وأي نعمة هذه التي نحن غافلون عنها ! .

ويزيد الليالي شرفاً ،وعزاً ،وفخراً ،وعظمةً نزول الباري عز وجل في كل ليلة إلى السماء الدنيا نزولا يليق بجلاله وكماله وعظمته ينظر في مسألة السائلين ، ودعاء المضطرين ، واستغاثة الملهوفين ، وندامة التائبين ، واعتراف المذنبين ، وتقصير المقصرين ، وليعطي كل واحد مسألته وكما قال تعالى: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ [٦٢]

وقال المصطفى(ﷺ) ((يتنزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول هل من تائب فأتوب عليه ، وهل من مستغفر فاغفر له ، وهل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر)) [٦٣] . وهذا يدعونا لان نتأمل في النصوص القرآنية مرة بعد أخرى ونكرر النظر فيها وفي معانيها المأخوذة من التفاسير الموثقة ، وبقراءة الآيات القرآنية تثبت المعاني وتستقر عند القارئ معان عند القراءة بتدبر وخشوع ، وهنا نقف عند الجزء الثاني من الأسرار التي أودعها تبارك وتعالى في الليل وهي أسرار اختيار الله تعالى لليالٍ معينة لحوادث معينة .

– أسرار اختيار الله تعالى بعض الليالي :

عند النظر في الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع نجد أن القرآن الكريم تحدث عند اختيار الله تعالى لليلة بعينها لكي تحمل حدثاً عظيماً ، فكانت تلك الليالي التي هي جزء من الزمن أو الوقت الماضي قد تشرفت بان كانت ظرفاً لهذه الحادثة أو تلك ونبدأ بأشر فها وأعظمها، وهي التي قال تعالى عنها :﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**﴾[٦٤] ، وهي التي أرادها بالقول :﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۞وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ﴾ [٦٥] ،هذه الليلة نزل فيها اشرف وأعظم كتاب ، وهو كلام الخالق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية الدخان: (في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة

وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها)[٦٦] ، وقال أيضا: (وأنه انزل القرآن ليلة القدر وهي الليلة المباركة)[٦٧] .

ولقد أضاف النبي (ﷺ) لهذه الليلة مكانة جديدة عندما حث العابدين بان يقوموا هذه الليلة بالعبادة والطاعة والتسبيح والاستغفار ليزيدها بذلك علوا ورفعة يليق بها بقوله: ((من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)) [٦٨] .

ولقد ذكر القرآن الكريم ليلةً أخرى مباركةً حدث فيها إعجاز يضاف إلى إعجاز القرآن الكريم ولكن هنا المعجزة لشخص النبي (ﷺ) الذي كرمه وشرفه الله برحلة عظيمة وعجيبة تشرفت تلك الليلة بكل لحظاتها بان تحرك هذا الحدث أو أن تكون ظرفا خالداً بخلود هذا الكتاب ألا وهي حادثة الإسراء والمعراج حيث قال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[٦٩] .

كما إن القرآن الكريم جعل الليل سببا ووسيلة لنجاة عباده المؤمنين من سطوة الطغاة الكافرين فكان الليل من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو ، حيث أخبر القرآن بان الله قد أمر نبيه لوطاً عليه السلام أن يخرج هو ومن آمن معه ليلاً بقوله ((**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**﴾[٧٠] .

قال ابن كثير رحمه الله : (أن يسري بأهله من آخر الليل) [٧١] .

وقد تكرر الأمر مع موسى عليه السلام فخلصه الله من سطوة فرعون وجنوده عندما أمره بالخروج ليلا حيث قال تعالى :﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [٧٢]

كما إن المصطفى ﷺ جعل خروجه من بيته في حادثة الهجرة ليلاً ، لتكون تلك اللحظات والدقائق الحرجة شاهدا على اختيار الخالق لها بان تكون أداة لنصر المؤمنين ، فالظلام يستر غيره لذا سماه الله تعالى (لباسا") ، قال سيد قطب رحمه الله :(الليل يستر الأشياء والأحياء فتبدو هذه الدنيا وكأنها تلبس الليل وتتسع بظلامه فهو لباس)[٧٣] ، ويبقى التساؤل عن السر الذي أودعه الله في ليلة القدر وليلة الإسراء مطروحا لعل من يجد ذلك فالله له في خلقه وتصرفاته حكم وأسرار لا يطلع عليها احد سواه .

لقد حث النبي (ﷺ) أصحابه على السفر في وقت الليل حيث قال :((عليكم بالدلّجة فان الأرض تطوى بالليل)) [٧٤] [٧٥] [٧٦] .

وقد قال ابن عثيمين رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: (ارشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته أن يسيروا في الليل ، واخبر أن الأرض تطوى للمسافر إذا سافر في الليل ، يعني انه يقطع في الدلجة – الليل – ما لا يقطعه في النهار ، وذلك لان الليل وقت يراد فهو أنشط للرواحل وأسرع في سيرها) (٧٧) .

في ظل هذه الأسرار التي أودعها الله تبارك وتعالى في الليل لنا وقفة أمام مسألتين تكون بهما نهاية الفوائد والأسرار ، وهاتان المسالتان ليستا بأقل شانا بل هما ختاما لهذا الموضوع ، الأولى منهما لها ارتباط بالتي تليها وتحمل دعوة للتفكر والتأمل في ظلام الليل حيث السكون والهدوء والراحة ، أما الأخرى فهي مجموعة الثمار التي نتجت عن تلك الأسرار سواء أكانت دنيوية أم دينية على مستوى الفرد أم الجماعة .

– المسالة الأولى : دعوة للتفكر : –

إن التفكر يحتاج إلى صفاء الذهن وعدم انشغال العقل بأمور خارجة عن الموضوع المراد التفكر فيه للوصول إلى نتيجة معينة ، وقد وصف الله تعالى أصحاب العقول الذين يتفكرون في خلقه بعد أن ذكر تعالى آيةً من آيات عظمته وهي اختلاف الليل والنهار حيث قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ (٧٨)، وعن الحسن البصري (رحمه الله) قال: (تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك) (٧٩) . وقال عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) : (الكلام بذكر الله عز وجل حسن ، والتفكر في نعم الله أفضل عبادةٍ) (٨٠) .

هذا عن التفكر في كل وقت فما بالك إذا تفكر العبد في وقت الصفاء الذهني، وقت تقف فيه أعضاء الجسد بين يدي خالقها بين التسبيح، والاستغفار، وتلاوة القرآن ،والدعاء ، وقد نقل عن بعضهم القول :(لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوا الله ، عز المؤمن استغناؤه عن الناس وشرفه قيامه بالليل) (٨١) .

إن عملية تعاقب الليل والنهار بنظام دقيق أصبحت مألوفة بحيث لا نرى فيها عجبا ، ويعبر عن ذلك سيد قطب رحمه الله بالقول: (ولكنه في ذاته عجب من العجب لمن ينفض عنه فوات الألفة ويتلقاه بحس الشاعر المتجدد الذي لم يجمده التكرار ، والنظام الدقيق الذي لا تتخلف معه دورة الفلك هو بذاته مثار تأمل في ناموس هذا

الكون وتفكر في القدرة المبدعة التي تدبره وترعاه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (٨٢) .

وهذا هو القنوت الذي جاء ذكره في قوله تعالى :﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٨٣) . حيث قال سيد قطب رحمه الله :(هذا هو القنوت لله وحساسية القلب واستشعار الحذر من الآخرة والتطلع إلى رحمة الله وفضله ومراقبة الله .. هذا هو الطريق .. إنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق التي تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه ولا تنسى يوم لقاه) (٨٤) .

– المسألة الثانية : ثمرة قيام الليل :–

إن قيام الليل سواءً أكان صلاةً ،أو تسبيحاً ، أو استغفاراً ، أو توبةً ، أو دعاءً ، أو ذكراً ، أو تلاوة قرآن فلكل واحدة من تلك العبادات ثمرة أو ثمرات يقطفها عاملها ،ولنقف عند كل عبادة وما وراء ها من خير يعود لصاحبه في الدنيا أو الآخرة ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾(٨٥) ، قال ابن عثيمين رحمه الله : ((ثم بيّن تعالى من ثمرات التهجد قال (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) قال العلماء : إذا قال الله تعالى في القرآن – عسى – فهو واجب يعني أن الله سيبعثك مقاما محمودا أي يبعثك يوم القيامة مقاما تحمد عليه من كل الخلائق)) (٨٦) . وقال تعالى أيضا :﴿**فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ (٨٧)، فالتسبيح والمداومة عليه كان سببا في نجاة يونس (عليه السلام) . وقد حثنا الله على التسبيح عموما وفي الليل خصوصا قال تعالى:﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾(٨٨)، وان كان نبيا من أنبيائه استمر على تسبيح الله فأنجاه الله مما كان فيه فمن باب أولى أن نكون مسبحين لله أفرادا وجماعات ليلا ونهارا لعل الله أن يجعل في ذلك التسبيح نجاة مما نحن فيه وخلاصا من العذاب . قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ (٨٩) . فالاستغفار سبب لرفع العذاب وسبب لمنع نزوله ، وقد مدح الله المستغفرين بالأسحار بقوله :﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾(٩٠).

ومن ثمراته قول النبي ﷺ ((من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً

ومن كل همّ فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب) [٩١] . ذكر القرآن الكريم من ثمرات الاستغفار قوله : ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً** ﴾ [٩٢] . وهذه الآيات تدعونا جميعا بان نتوجه إلى الله بالتوبة والاستغفار لعلنا نخرج من الظلام الذي نحن فيه ، ومن الكروب التي حلت بنا ، وخصوصا إذا علمنا أن نبينا محمداً (صلى الله عليه وسلم) قال وفعل بالقول :((والله إني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة))[٩٣] . فالتوبة والاستغفار معا سبب في القوة حيث قال تعالى :﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**﴾ [٩٤] ، فهذه دعوة من الله للمسيء والعاصي والظالم لنفسه والمقصر بالعبادة بان يتوبوا إلى الله توبة نصوحا وهم يسمعون قول النبي(ﷺ)((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار)) [٩٥] ، وقوله(ﷺ) ((إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حيث يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فاغفر له ، هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر)) [٩٦] . وفي هذا الخبر بشارة لكل من يبحث عن التوبة والرجوع إلى الله ، ولمن يريد تفريجا لكربة ، فخير الدنيا والآخرة مكنوز في الثلث الأخير من كل ليلة وهكذا العمر كله .

فأين الذين يغتنمون فرصة قد لا تعوض في ساعة من ليلة من تلك الليالي لعل الدعاء يسمع ، ولعل العمل يرفع ، ولعل الشر والظلم يدفع في لحظة ، قال رسول الله ﷺ((إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسال الله تعالى خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة)) [٩٧] .

قال ابن عثيمين : وهذه الساعة غير معلومة بعينها وذلك من اجل أن نجتهد وأن نتحرى قدر الله عز وجل [٩٨] أفلا تريد أن تكتب في الذاكرين والذاكرات إذا أردت ذلك فاستمع لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ((من استيقظ من الليل وأيقظ أهله فصليا ركعتين جميعا كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات)) [٩٩]

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد (ﷺ)

أما بعد :

فبعد أن كنا نعيش مع جزء من الزمن وهو مأخوذ من أعمارنا التي قدرها الله لنا. لابد لنا من أن نسجل أهم الجوانب التي تعد مشاعل نور يهتدي بها من كان له قلب سليم وهي كما يأتي:

١-الليل لا يقل أهمية عن النهار بكونه يسهم في استمرار وديمومة الحياة على وجه الأرض إلى اجل مسمى ، فهو وقت ويفاد منه الإنسان وغيره من ظلامه . وما يحمله من سبات وسكون وراحة واطمئنان وتجديد لحركة جديدة وإبداع وتطور جديدين في النهار والنشور .

٢-الليل له دور حسابي متلازم مع النهار في أداء هذا الدور الذي له اثر كبير في حساب الأيام والأسابيع والشهور والأعلام وما يترتب عليه من مصالح دنيوية لايمكن للحياة أن تسير من دونه قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء:١٢)

٣-جعل تبارك وتعالى الليل ظرفا يحمل بداخله افضل واعظم الأحداث التي ذكرت في القرآن الكريم وهي ليلة القدر تلك الليلة التي تشرفت بنزول القرآن قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (القدر:١) وليلة أخرى تشرفت بإسراء المصطفى ﷺفيها من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم المعراج إلى السماوات العلى قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:١) . فضلاً عن أن الليل كان سبباً في نجاة عباده المؤمنين من سطوة الكفار عندما ستر بظلامه لوطاً ومن معه عندما خرجوا من قومهم هرباً بدينهم قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾

(هود:٨١) وكذا الأمر فيما يخص موسى (عليه السلام) حيث قال تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ (الدخان:٢٣).

٤-الليل اختيار الله تعالى للعبادة والتقرب إليه بالاستغفار وتلاوة القرآن والدعاء فعبادة الله ليلاً أفضل من عبادته نهاراً لأن فيها الصدق والإخلاص والتذلل والافتقار قال تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (المزمل:٦) .

فان أخطأنا فهذه طبيعة البشر ، واعترف بالقصور والتقصير وقلة البضاعة في هذا المجال ، وان أصبت فهذا فضل الله ومَنّهِ وإحسانه .

الهوامش

(١) الإسراء ،الآية ١٢ .

(٢) الزمر، الآية ٩ .

(٣) ينظر : لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ)، دار صادر – بيروت ، الطبعة الحادية عشرة ، ١/ ٦٣٠ ، ١١/ ٦٠٨ ، ومختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٧٢٦ هـ) ، لبنان – بيروت ١٩٩٥ م ، ١/ ٢٥٥ .

(٤) ينظر : التوقيف على مهمات التعاريف : محمد عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١ هـ) ، دار الفكر المعاصر بيروت ، الطبعة الأولى ، ١/ ٦٣٠ .

(٥) آل عمران ، الآية ١٩٠ .

(٦) آل عمران ، الآية ٢٧ .

(٧) الإسراء ، الآية ١٢ .

(٨) المدثر ، الآية ٣٣ .

(٩) آل عمران، الآية ١٩٠ .

(١٠) تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ٣٥٦/١، ٤٣٨/١

(١١) تفسير القرآن العظيم ، ٤٠٧/٢ .

(١٢) الفرقان ، الآية ٤٧ .

(١٣) النبأ ، الآية ٩ .

(١٤) تفسير القرآن العظيم ، ٣٢٠/٣ ، ٤٦٢/٤ .

(١٥) النبأ، الآية ١٠ .

(١٦) القصص، الآية ٧٣ .

(١٧) النمل، ٨٦ الآية .

(١٨) تفسير القرآن العظيم ، ٤٣٠/٣ ، ٨٦/٤ .

(١٩) تفسير القرآن العظيم ، ٣٧٧/٣ ، ٤٢٤/٢ .

(٢٠) في ظلال القرآن : سيد قطب ، دار الشروق ، مصر ط ٣٤ سنة ٢٠٠٤ ، ٣٠٩٣/٥ ، ٢٧٦٤/٥ .

(٢١) ينظر بتصرف فسلجة النبات ٤٥/٢ ، عبد العظيم محمد ، وينظر مبادئ علم البستنة ، وينظر مبادئ تغذية النبات ،٦٧/١.

(٢٢) القصص من الآية ٧١ إلى الآية ٧٣ .

(٢٣) في ظلال القرآن ، ٢٧٠٨/٥ ، ٢١٦٣/٤ .

(٢٤) في ظلال القرآن ، ٢٧٦٤/٥ ، ٢١٠٨/٤ .

(٢٥) الإسراء، الآية ١٢ .

(٢٦) تفسير القرآن العظيم ، ٢٦/٣ ، وينظر في ظلال القران ، ٢٢١٧/٤ .

(٢٧) تفسير القرآن العظيم ، ٤٠٧/٢ .

(٢٨) البقرة ، الآية ١٨٩ .

(٢٩) يونس ، الآية ٥ .

(٣٠) العنكبوت ، الآية ٢٣ .

(٣١) الزمر ، الآية ٤٢ .

(٣٢) فقه الأدعية والأذكار (عمل اليوم والليلة) : عبد الرزاق عبد المحسن البدر ، ط١ الكويت ٢٠٠٣ ، ٦٦-٦٧ .

(٣٣) صحيح البخاري : لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ٥/ ٢٣٢٧(٥٩٥٥) ، صحيح مسلم : لمسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) ، تحقيق :محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الثانية ، ٢٠٨٣/٤(٢٧١١)

(٣٤) في ظلال القرآن ، ١١٢١/٢ .

(٣٥) سبق تخريجه في هامش (٣٢) .

(٣٦) المزمل من الآية ٢ إلى الآية ٦ .

(٣٧) الإسراء ، الآية ٧٩ .

(٣٨) تفسير القران العظيم ، ٢٢٩/٤ .

(٣٩) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المخزومي مولاهم ، المكي . ثقة إمام في التفسير وفي العلم ، وهو تابعي متفق على جلالته وإمامته . قال قتادة : أعلم من بقي بالتفسير مجاهد . وقال أبو نعيم : مات مجاهد وهو ساجد سنة ثنتين ومائة .

ينظر : الطبقات الكبرى : لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ ، ٥/ ٤٦٦ ، سير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين تحت إشراف شعيب الأرناؤوط ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ٤ / ٤٤٩ .

(٤٠) تفسير القرآن العظيم ، ٤/٤٣٥ .

(٤١) تفسير القرآن العظيم ، ٤/٤٣٥ .

(٤٢) في ظلال القرآن ، ٦/٣٧٤٥ .

(٤٣) في ظلال القرآن ، ٦/٣٧٤٦ .

(٤٤) في ظلال القرآن ، ٦/٣٧٤٦ .

(٤٥) الذاريات من الآية ١٧الى الآية ١٨ .

(٤٦) صحيح البخاري ٤/ ١٨٣٠(٤٥٥٧) .

(٤٧) الذاريات ، الآية ١٧ .

(٤٨) هو الحسن بن أبي يسار ، أبو سعيد البصري ، مولى زيد بن ثابت الأنصاري ، وقيل غير ذلك . ولد رحمه الله لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه . كان سيد زمانه علما وعملا ، ثقة حجة ، من الشجعان الموصوفين ، ومن أهل الفصاحة المعروفين . توفي سنة ١١٠ هـ . ينظر : الطبقات الكبرى ٧ / ١٥٦ ، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣

(٤٩) تفسير القرآن العظيم ، ٤/٢٣٣-٢٣٤ .

(٥٠) في ظلال القرآن ، ٦/٣٣٧٧ .

(٥١) السجدة ، الآية ١٥ .

(٥٢) شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ) ، شرحه أملاه الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، حققه وخرج أحاديثه أحمد عبد الرزاق البكري ، ومحمد عادل محمد ، ومحمد عبد اللطيف خلف ، دار السلام – القاهرة ، مصر ط١ ٢٠٠٢ ، ٢/١٣٥٦ .

(٥٣) المصدر نفسه ٢/١٣٥٧ .

(٥٤) صحيح مسلم ٢/٨٢١ (١١٦٣) .

(٥٥) شرح رياض الصالحين ، ٢/١٣٥٦ .

(٥٦) الإسراء ، الآية ٧٩ .

(٥٧) تفسير القرآن العظيم ، ٣/١٧٠ .

(٥٨) ينظر المصدر نفسه ، ٣/٥٤ .

(٥٩) ق، الآية ٤٠ .

(٦٠) الإنسان، الآية ٢٦ .

(٦١) صحيح مسلم ١/ ٥٢١(٧٥٧)

(٦٢) شرح رياض الصالحين ، ٢/١٣٦٦-١٣٦٧ .

(٦٣) آل عمران، الآية ١٩٥ .

(٦٤) صحيح البخاري ٥/٢٣٣٠(٥٩٦٢).
(٦٥) الدخان ،الآية ٣ .
(٦٦) القدر، الآية ١ .
(٦٧) تفسير القرآن العظيم ، ٤/١٧٣ .
(٦٨) المصدر نفسه ٤/٥٢٩ .
(٦٩) صحيح البخاري ١/ ٢١(٣٥).
(٧٠) الإسراء ، الآية ١ .
(٧١) هود ،الآية ٨١ .
(٧٢) تفسير القرآن العظيم ، ٢/٤٥٤.
(٧٣) الدخان، الآية ٢٣ .
(٧٤) في ظلال القرآن ، ٥/٢٥٦٩ .
(٧٥) الدلجة : السير في الليل ، شرح رياض الصالحين ، ٢/١٢١٨ .
(٧٦) تطوى : يسهل المشي فيها بحيث يظن الماشي انه سار قليلا" .. وذلك للإحساس بالنشاط من برودة الليل ، المصدر نفسه ، ٢/١٢١٨ .
(٧٧) السنن : لأبي داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق : محمد عبد العزيز الخالدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت–لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ، ٢/ ٣٣ (٢٥٧١) ، والمستدرك على الصحيحين : لأبي عبد الله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) ، لبنان – بيروت ، دار الكتب العلمية، ١/ ٦١٣ .قال الحاكم عقيب الحديث : ((هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه))
(٧٨) شرح رياض الصالحين ، ٢/١٢١٩ .
(٧٩) آل عمران الآية ١٩٠–١٩١ .
(٨٠) شرح رياض الصالحين ، ١/٤٣٨ .
(٨١) محمد واضح رشيد ، ص٥٥٣ ، التربية الإسلامية ، العدد ٩(٣٦) لسنة ٢٠٠٥م.
(٨٢) في ظلال القران ، ٢/٢٠٤٦ .
(٨٣) الزمر، الآية ٩ .
(٨٤) في ظلال القرآن ، ٥/٣٠٤٢ .
(٨٥) الإسراء، الآية ٧٩ .
(٨٦) شرح رياض الصالحين ، ٢/١٣٥١ .
(٨٧) الصافات، الآية ١٤٣ .
(٨٨) الإنسان، الآية ٢٦ .

(٨٩) الأنفال، الآية ٣٣ .

(٩٠) الذاريات من الآية ١٧الى الآية ١٨ .

(٩١) سنن أبي داود ٢/ ٨٥ (١٥١٨)

(٩٢) نوح من الآية ١٠ إلى الآية ١٢ .

(٩٣) صحيح البخاري ٥/٢٣٢٤(٥٩٤٨).

(٩٤) هود الآية ٥٢ .

(٩٥) صحيح مسلم ٤/ ٢١١٣(٢٧٥٩)

(٩٦) سبق تخريجه ص١٨ .

(٩٧) سبق تخريجه .

(٩٨) شرح رياض الصالحين ، ٢/١٣٦٦-١٣٦٧ .

(٩٩) سنن أبي داود ٢/ ٧٠ (١٤٥١) ، المستدرك على الصحيحين ١/٤٦١